



هل ينتصر الخير حتماً؟ لماذا سمح الله بوجود الشر؟ كيف يكون في الشر خيراً؟ لماذا يسكت الله عن الظلم ويمد في آجال الظالمين؟ لماذا يموت الأخيار مبكرين؟ ما سبب البلاء؟ لماذا لا يستجاب الدعاء؟ إذا كنا متوكلين على الله حقاً فلماذا نطلب المساعدة من الناس؟ هل الإسلام دين خيالي غير قابل للتطبيق؟ إذا قامت دولة الحق فهل تبقى أبداً؟ لماذا نتعب أنفسنا من أجل انتصار لا يدوم؟

الأسئلة السابقة ليست جديدة، لكن المؤمنين يطرحونها اليوم كما لم يطروها من قبل، فقد ثقل الحِمْل على الناس وطالت المحنـة فأثارت مكنونات النفوس، فأمسى كثيرون فرائسَ للقلق والهواجـس، وباتوا حـيـارـاً يبحـثـون عن أجوبة مقنـعة تطمـئـن نفـوسـهم القـلـقة وتحـفـظـ عليها الإيمـانـ والـيـقـينـ.

لعلكم لاحظتم أنني جمعت الأسئلة كلها تحت عنوان واحد: "أسئلة المؤمنين"، لأن جوابها لا يمكن تقديمـه ولا يمكن فهمـه إلا باللغـةـ التيـ يـعـرـفـهاـ وـيفـهـمـهاـ المؤـمـنـونـ، فـمـنـ لمـ يـؤـمـنـ بـالـإـسـلـامـ اـبـتـادـأـ أوـ شـكـ فيـ نـصـوـصـهـ وـتـصـوـرـهـ لـلـإـنـسـانـ وـالـحـيـاةـ وـالـوـجـودـ فـلـنـ تـنـفـعـ هـذـهـ الـأـجـوـبـةـ، وـلـأـظـنـ أـنـهـ سـيـجـدـ غـيرـهـ أـبـدـاـ فـيـ أـيـ مـكـانـ.

"الحكمة يعلمها الله". كثيراً ما يسأل المبتلون بأنواع البلاء: لماذا يا رب؟ فلا يجدون جواباً سوى تلك الكلمات، فيطمئنون زماناً ويسكتون، لكن البلاء يستمر ويتعاظم فيدفعهم إلى السؤال من جديد. وما تزال الأسئلة تعصف بأذهانهم الفلقة فيكررون السؤال مرة بعد مرة، ويسمعون الجواب نفسه في المرات جميعاً، ذات يوم يبلغ الاحتمال بأحددهم غايته فيصرخ غاضباً: ما معنى لحكمة يعلمها الله؟ ما هذه الحكمة التي لم يعرفها ولا يفهمها أحدٌ من الناس؟

الذين بلغ بهم اليأس والغضب هذا المبلغ هم الذين أقصى عليهم هذه القصة.

أخذني أبي ذات يوم إلى المدرسة وأنا في الرابعة، لم ألف فراق الأب والأم ولم آنس إلى الأغراب، ثم تركني ومضى. ما زلت أذكر صورة ذلك اليوم الحزين من وراء حجاب السنين؛ خمسٌ وخمسون سنة لم تُنسني رهبه وكآبته. أغلق الباب على عشرين طفلاً من المخلوقات الرقيقة الضعيفة، ونظر الصغير حوله فرأى وجهاً غريباً لا يعرفها، فاندفع إلى الباب يريد فتحه واللحاق بالأب الذي اختفى وتركه وحيداً بين الغرباء. وكذلك صنع كل واحد من الأطفال، فما كان من المعلمة إلا أن جرّت الطاولة فوضعتها وراء الباب، ثم جلست فوقها فأغلقت طريق النجاة الوحيدة إلى عالم الحرية والأمان!

أمضى الأطفال وقتاً طويلاً بالبكاء، ربما اليوم بطوله، حتى عاد الآباء فحرروهم من الحبس ورفعوا عنهم البلاء. لكن الغد كان محملاً بالمزيد من تلك الآلام، وغداً الغد والذي بعده وبعده... وفي كل يوم يتثبت الطفل بأبيه، لكن أبياه يُسلمه إلى الكرب المُضني ويمضي. لماذا يا أبيت؟ لحكمة ستعلمنها يا صغيري ذات يوم.

وجاء اليوم الذي انكشفت فيه الحكمة فعرفها الصغير.

* * *

ما كل عمل يعمله الكبار يفهم حكمته الصغار، ولكنهم يقبلون ويسكتون ويطمئنون لأنهم يشعرون أنهم في أيدي أمينة، رغم أن الفرق بين عقل الصغير وعقل الكبير هو فرق الأضعاف المفردة، ثلاثة أضعاف أو خمسة أو عشرة. ولتكن مئة ضعف، ولتكن ألفاً، فهل فكرتم قط بالفرق بين علم المخلوق وعلم الخالق؟ بين حكمة الخالق وحكمة المخلوق؟

إن الآباء يطالبان صغيرهما بالاستسلام لرأيهما لأنهما على يقين أنهما أعلم بما هو صالح له، وهذا واقنان من محبتهمما له ورحمتهمما به، فلن يختارا له إلا الخير. وما نسبة علمهما بخير الصغير إلى علم الخالق بخير المخلوق؟ لماذا يرضى الواحد منا لنفسه بأن يهيمن على حياة الطفل الصغير ولا يرضى أن يهيمن عليه ويختار له قدرة الرب الرحيم الحكيم العليم؟

لماذا أتجرأ وأنا الأب فأقول لولدي الصغير وهو يتجرع الدواء المُرّ: ثق بي وتجرعه، فإن وراء مراته الظاهرة ما لا تعلمه من الخير والنفع والشفاء. لماذا أقول لولدي ذلك ثم ألتفت إلى ربي متسلطاً غاضباً وأقول: لماذا كتبت علي الشقاء والألم في هذه الدنيا يا رب؟ أين رحمتك؟ أين عدליך؟ أين محبتك ورفاقك عبادك المؤمنين؟

* * *

يا أيها المؤمنون: إما أن تؤمنوا بالله كما وصف الله نفسه في قرآن الكريم، فهو رب العليم الرحيم الكريم الخبير القدير، وعنده ست Reeves إلى السماء رؤوسكم كلما أصابكم البلاء فتقولون: شكرأ يا رب، فأنت أعلم بما يصلح لنا ولن تختار لنا إلا الخير. أو تؤمنوا بإله غيره، معاذ بالله.

نعم، إن هذه الجملة جواب للمؤمنين الذين تُلْحَّ على عقولهم الفلقة تلك الأسئلة وأمثالها، ولكن لها أيضاً أجوبة أخرى أرجو أن يجدوا فيها الرضا والاطمئنان. التفاصيل في بقية حلقات هذه السلسلة، فادعوا لي بالبركة في الوقت لكتابتها ونشرها في

هذا الشهر الفضيل.

الزلزال السوري

المصادر: